الأسرة الثالثة عشرة

مقدمة

كان تولي الملكة «سبك نفرو رع» عرش مصر آخرَ مرحلةٍ تُنذر بسقوط الأسرة الثانية عشرة، فبانتهاء حكمها انقطع نسل هذه الأسرة، ودخلت مصر في عصر مضطرب، تُغشِّيه ظلمة حالكة تتضاءل أمامها تلك الظلمة التي غشت البلاد على إثر سقوط الدولة القديمة؛ فالمصادر التي لدينا عن ذلك العصر نادرة، والآثار التي كُشف عنها حتى الآن ضئيلة، لا تساعدنا على تفهُّم أحوال البلاد، ولا تُرشدنا إلى ترتيب ملوكها ترتيبًا تاريخيًّا مسلسلًا.

ومما يؤسف له جد الأسف أن أهم هذه المصادر ورقة «تورين»، وقد وصلتنا ممزقة مهلهلة، وبخاصة عند سرد ملوك هذه الأسرة، عدا الجزء الأول منها؛ من أجل ذلك أصبح من العسير وضع كثير من ملوكها في أماكنهم الأصلية، إلا عن طريق الحدس والتخمين.

وكذلك قائمة الملوك التي أمر بنقشها «تحتمس الثالث» في معبده «بالكرنك» في المكان المعروف الآن بقاعة الأجداد (راجع الجزء الأول)، لا تشمل إلا نخبة من الملوك الذين حكموا مصر منذ القدم حتى عهد هذا الفرعون.

أما المصادر الإغريقية فلدينا منها مقتطفات ومختصرات نَقَلَها «يوسفس» و«أفريكانوس» و«يوزيب» عن المؤرخ المصري «مانيتون»؛ فقد ذَكَرَ لنا هذا المؤرخ في مختصره عن تاريخ مصر أن الأسرة الثانية عشرة قد أعقبتها الأسرة الثالثة عشرة، وأن ملوكها نحو ستين فرعونًا، وأنهم اتخذوا مدينةَ «طيبة» عاصمة لملكهم، وأنهم حكموا نحو ثلاثة وخمسين وأربعمائة عام.

ثم خَلَفَهم ملوكُ الأسرة الرابعة عشرة، واتخذوا مدينة «سخا» — من أعمال الدلتا — مقرًّا لملكهم، وكان ملوكها ستة وسبعين فرعونًا، حكموا نحو أربعة وثمانين ومائة عام. وفي عهد هذه الأسرة كانت كارثة غزو البلاد بقومٍ مِن الأجانب يُعرفون بـ «الهكسوس»، أو ملوك الرعاة، والمعروف أن هؤلاء الفاتحين ظلوا يسيطرون على البلاد طيلة عهد الأسرتين: الخامسة عشرة، وملوكها ستة؛ والسادسة عشرة، وفراعنتها اثنان وثلاثون فرعونًا.

وأخيرًا جاء عهد الأسرة السابعة عشرة، وقد حكم خلالها ثلاثة وأربعون ملكًا من ملوك «الهكسوس» وثلاثة وأربعون فرعونًا من فراعنة «طيبة» المصريين في وقت واحد.

ويقدِّر «مانيتون» زمن حكم ثلاث الأسر الأخيرة — أي من الأسرة الخامسة عشرة إلى السابعة عشرة — بنحو ثلاثين وتسعمائة سنة، ويقدِّر الفترة التي بين نهاية الأسرة الثانية عشرة والسابعة عشرة — بما في ذلك عهد الفرعون «أحمس الأول» مخلِّص مصر — بنحو سبعين وخمسمائة وألف عام.

ولا شك في أن هذا التقدير الزمني مبالَغ فيه إلى درجة لا يقبلها العقل والمنطق معًا، وسنتكلم عن هذا الموضوع في حينه. غيْر أنَّا نجد أن ما ذهب إليه «مانيتون» يتفق وما جاء في «ورقة تورين» في تتابُع الأسر وسِنِي حكم كل ملك؛ فنجد في «ورقة تورين» بعد الأسرة الثانية عشرة قائمة بأسماء ملوك شغلتْ أعمدة عدة منها، ويُمْكن الباحثَ أن يلاحِظ فيها نحو خمس فواصل يدلُّ كلٌّ منها على تغيير أسري، وتبتدئ إحدى هذه الأسر بالفرعون الواحد والستين؛ ومن ثَمَّ نَعرف أن الستين ملكًا الذين سبقوا هذا الفرعونَ هم الفراعنة الذين تتألف منهم الأسرة الثالثة عشرة، حسب رأْي «مانيتون»،[1] ثم يلي ذلك في الورقة سلسلة طويلة بأسماء الملوك الذين تتألف منهم الأسرة الرابعة عشرة.

ولم يبقَ لنا في الأعمدة الأخيرة المؤلفة لهذا الجزء من البردية إلا بعض نتف صغيرة نقرأ فيها بعض أسماء ملوك للهكسوس، وأسماء فراعنة ممن حكموا في «طيبة» في عهد الأسرة السابعة عشرة، وإن كان بقي لنا محفوظًا في هذه الورقة تواريخ نحو ثلاثين فرعونًا، أكثرهم من الأسرة الثالثة عشرة، والقليل منهم من الأسر التي أعقبتها.

ونفْهَم من هذه التواريخ أن مدة حكم كل ملك منهم كانت قصيرة، وأنهم تولوا الحكم متلاحقين مسرعين. وهذه الحقيقة تتفق اتفاقًا منطقيًّا مقبولًا وما عرفناه من

[1] راجع: "A Dictionary of Greek and Roman Biography and Mythology," by W. Smith. (London, 1873), Vol. II, p. 915–916, & Ed Meyer, "Histoire de l'Antiquité", § 151.

الآثار القليلة التي تركها لنا ملوك هذا العصر، ذلك إلى أنه يمكننا التدليل على أن ملوك الأسرة الرابعة عشرة، بل وبعض ملوك أواخر الأسرة الثالثة عشرة، كانوا يَحكمون في عصرٍ واحد مع ملوك «الهكسوس» الغزاة، كلٌّ على الجزء الذي يسيطر عليه، كما سنرى بعد.

ومما يؤسَف له أن المجاميع الشاملة لمدة حكم فراعنةِ كلِّ أسرة قد فُقِدَ معظمها من بردية «تورين»، ومن الجائز أن مؤلِّف الورقة قدَّر أن كل أسرة ذَكَرها قد أعقبَت سابقتَها ولم تعاصرها، وكذلك فعل «مانيتون»[٢] (اللهم إلا سلسلة الملوك المزدوجة من الهكسوس والمصريين الذين ظهروا في عهد الأسرة السابعة عشرة).

وهذا خطأ وقع فيه المؤرخون للتاريخ البابلي في عهد الأسر القديمة.

أما قائمتا الملوك اللتان عُثر عليهما في «سقارة» و«العرابة المدفونة»، فقد أغفلنا ذكر أسماء الملوك الذين حكموا البلاد منذ الأسرة الثالثة عشرة حتى الأسرة السابعة عشرة، وهذا على العكس من قائمة الكرنك المنسوبة إلى «تحتمس الثالث» كما ذكرنا، فإنها عددت لنا أسماء خمسة وثلاثين فرعونًا انتخبوا من ملوك الأسرة الثالثة عشرة والأسرة السابعة عشرة، وقد بقي محفوظًا لنا منها خمسة وعشرون اسمًا، بعضها سليم والبعض الآخر مهشم. ولكن يلحظ أن هذه القائمة قد أغفلت ذكر ملوك الأسرة الرابعة عشرة، وكذلك تجاهلت أسماء ملوك «الهكسوس» التجاهل كله، ومع ذلك فإن هذه القائمة لا تتبع في عامَّتها الترتيب التاريخي إلا في بعض مجاميع انتخبتْ على حدة.

وسنتكلم عن ملوك الأسرة الثالثة عشرة في ضوء هذه القوائم، وما وجد من الكشوف الحديثة بقدر ما تسمح به آخر المظانِّ والبحوث التي ظهرت حتى الآن.

[٢] راجع: Ed. Meyer, “Histoire de l’Antiquite”, Tom II. § 298, p. 334.